مقدمة

في علوم القرآن

القرآن الكريم

محمد بن علي بن جميل المطري

شبكة الألوكة
www.alukah.net

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن، وجعله تذكرة للمؤمنين في كل زمان ومكان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي بركاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه، أما بعد:

فهذه مقدمة مختصرة في علوم القرآن الكريم، كتبتها للمبتدئين، واقتصرت فيها على أهم مسائل علوم القرآن وأصول التفسير، وبسطت بعض المسائل التي تحتاج إلى بسط وتحرير، واجتهدت في تسهيلها مستفيداً مما تيسر من كتب المتقدمين والمتأخرين، وأسأل الله أن ينفع بها المسلمين، والله الموفق.

وكتب/ محمد بن علي بن جميل المطري

17شهر ربيع ثاني 1436 هـ

صنعاء- اليمن

التمهيد

علوم القرآن هي: المباحث التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه، وجمعه وكتابته، وقراءاته، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وإعجازه، ودفع الشبه عنه، ونحو ذلك.

والقرآن الكريم هو: كلام الله الـمُنَزَّل على نبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم، المتعبد بتلاوته، المعجز بأقصر سوره.

الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي:

1- أن القرآن الكريم كلام الله أَوْحَى به إلى رسول الله بلفظه، وتحدى به العرب، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، ولا يزال التحدي به قائمًا، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين. والحديث القدسي لم يقع به التحدي والإعجاز.

2- أن القرآن الكريم من عند الله لفظًا ومعنًى، فهو وحي باللفظ والمعنى، وأما الحديث القدسي فمعناه من عند الله، ولفظه قد يكون من الله وقد يكون من عند الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو وحي بالمعنى دون اللفظ، ولذا تجوز روايته بالمعنى.

3- أن القرآن الكريم مُتَعَبَّدٌ بتلاوته، وتتعين القراءة به في الصلاة، وله فضل خاص لمن قرأ حرفا منه أو حفظ آية منه، والحديث القدسي لا يجزئ في الصلاة، ويثيب الله على قراءته ثوابًا عامًّا لا خاصا.

الفرق بين الحديث القدسي والحديث النبوي:

1- أن الحديث القدسي ينسبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرب تبارك وتعالى فيقول فيه: "قال الله تعالى كذا"، فيما لم يكن من القرآن، وأما الحديث النبوي فلا يذكر فيه ذلك اللفظ.

2- أن الحديث النبوي يشمل ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقية أو خُلُقية.

الوحي

قال الله تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: 51].

ذكرت هذه الآية ثلاثة أنواع للوحي، وهي:

1 - أن يلقي كلامه على النبي بكيفية غير معتادة فيعيه.

2 - أن يكلمه مباشرة من وراء حجاب، فلا يرى النبي ربه، لكن يسمع كلامه، وقد وقع هذا لموسى عليه السلام ولنبينا محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم في المعراج.

3 - أن يرسل رسولاً من الملائكة، وغالباً يكون المرسَل جبريل عليه السلام، فيسمع صوته ولا يراه، وأحيانا يتمثَّل بصورة إنسان.

والوحي من أمور الغيب التي يختص الله بها النبي المرسل، وقد ورد في السنة ما يدل على كيفية الوحي والحال التي يكون عليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أثناء تلقيه له، ففي الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا رسول الله. كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينْزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

نزول القرآن

أول ما نزل من القرآن الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وكان ذلك في ليلة القدر في شهر رمضان، ثم استمر القرآن يترل على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا لمدة ثلاث وعشرين سنة، وآخر سورة نزلت سورة النصر، وآخر آية نزلت: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة: 281]، وقيل غير ذلك، وأغلب السور القصيرة كانت تترل دفعة واحدة، وأغلب السور الطويلة كانت تترل مفرقة على عشر آيات أو أكثر أو أقل، وبعض السور الطويلة نزلت كاملة دفعة واحدة مثل سورة الأنعام والكهف.

ومن فوائد نزول القرآن مفرقاً ما يأتي:

1 - تثبيت فؤاد الرسول عليه الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: 32].

2 - مواكبة الحوادث والمسائل التي تقع في عصر النبوة، إذ كان الوحي ينْزل بشأنها؛ إمَّا قرآنٌ، وإما غير ذلك، تلك الحوادث والمسائل هي أسباب النُّزول التي صارت علماً مهمّاً لمن أراد أن يفسر القرآن.

3 - التدرج في التشريع وبيان الأحكام والحدود، فالشريعة لم تنْزل جملة واحدة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، بل كان ينْزل منها الشيء بعد الشيء من تفاصيل الأحكام والحدود حتى اكتملت الشريعة وتمَّ الدين.

حفظ الله لكتابه الكريم

القرآن الكريم محفوظ من التبديل والتحريف قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9], فأخبرنا الله أنه سيحفظ القرآن من التحريف والزيادة والنقصان فوقع كما أخبر, فما قدر أحد أن يحرف شيئاً من القرآن الكريم إلى هذا الزمان, لا آية من آياته, ولا كلمة من كلماته, ولا حتى حركة من حركات إعرابه, فقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يأتيه جبريل عليه السلام بالقرآن الكريم شيئاً بعد شيء لمدة ثلاثة وعشرين عاماً, فكان النبي عليه الصلاة والسلام يحفظ ما يسمعه من الملَك الكريم جبريل عليه السلام ولا ينساه, ثم يقرؤه على أصحابه ويأمرهم بكتابته, ويحفظه غيبا كثير منهم، ويسمعون النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤه في صلواته الجهرية يومياً, ويُعلِّم أصحابه آياته, ويُعلِّم من حفظ منهم غيرهم, فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم وفَّق الله الصحابة فكتبوا القرآن الكريم في مصحف واحد, وكان حفاظه حينئذ كثيرين ويحفظونه بإتقان, ويستطيع كثير منهم أن يمليه من أوله إلى آخره غيباً, ولكنهم لشدة تحريهم اجتهدوا أن لا يكتبوا شيئاً من القرآن إلا من تلك المكتوبات التي كُتبت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم في حياته, فجمعوا القرآن الكريم كاملاً كما أنزله الله, واجتهدوا في تعليمه للتابعين كما كان يعلمهم رسول الله, وتناقله المسلمون بالقراءة في الصلوات والتعليم في الحلقات والكتابة في الصفحات جيلاً بعد جيل إلى أن وصل إلينا بلا زيادة ولا نقصان، والحمد لله رب العالمين.

نزول القرآن على سبعة أحرف

روى البخاري ومسلم عن عبد الرحمن بن عبدٍ القاري أنه قال: «سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أقرأنيها، وكِدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لَبَبْتُه بردائه، فجئت به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها. فقال لي: «أرسله». ثم قال له: اقرأ. فقرأ. قال: «هكذا أُنزلت». ثم قال لي: اقرأ. فقرأت، فقال: هكذا أُنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا منه ما تيسر».

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف».

وهذه الأحرف نزلت من عند الله، والقراءة بأي حرف من الأحرف السبعة تعتبر قرآناً، وبأيها قرأ القارئ فهو مصيب، والاختلافات الواردة في القراءات العشر المشهورة أنواع كثيرة، منها على سبيل المثال:

1 - الإظهار والإدغام نحو: (قد سمع، قسَّمع).

2 - الفتح والإمالة نحو: (والضحى) بفتح الألف وبإمالة الألف إلى الياء.

3 - القصر والمد نحو: (والذين يؤمنون بمآ أنزل إليك) بالمد وترك المد.

4 - التسهيل والتحقيق نحو: (ءاعجمي، أأعجمي).

5 - التحقيق والإبدال نحو: (يؤمنون، يومنون).

6 - الإبدال بين الحروف نحو: (الصراط والسراط).

7 - الزيادة والنقصان نحو: (أوصى، وصَّى)، (تجري من تحتها، تجري تحتها).

8 - اختلاف الإعراب نحو: (فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ، فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ).

9 - الخطاب والغيبة نحو: (يعلمون، تعلمون).

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

10 – التذكير والتأنيث نحو: (كان سيئُه، كان سيئةً) (كالذي استهوته، كالذي استهواه).

11 – تغيير الكلمة ومعناها نحو: (تبلوا، تتلوا)، (بظنين، بضنين)، (يَكْذِبون، يُكَذِّبون).

وهذه الاختلافات كلها من كتاب الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

القراء العشرة المشهورون

1- نافع بن عبد الرحمن المدني "70-169هـ" إمام دار الهجرة، وكان إمام المسجد النبوي، أخذ القراءة عن جماعة من التابعين كأبي جعفر المدني وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وبلغ شيوخه السبعين، وهم أخذوا القرآن عن الصحابة رضي الله عنهم. وراوياه قالون وورش.

2- ابن كثير "عبد الله بن كثير المكي "45-120هـ" إمام القراء بمكة، قرأ على عبد الله بن السائب وقرأ عبد الله على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وراوياه البزي وقنبل.

3- عاصم بن أبي النَجود "00-127هـ" انتهت إليه رئاسة الإقراء في الكوفة، قرأ على زر بن حبيش وهو قرأ على عبد الله بن مسعود، وقرأ على أبي عبد الرحمن السلمي الذي قرأ على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وراوياه شعبة وحفص.

4- أبو عمرو بن العلاء البصري "68-154هـ"، قرأ على الحسن البصري وأبي العالية وسعيد بن جبير وعاصم بن أبي النجود وابن كثير المكي وعكرمة مولى ابن عباس وابن محيصن ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، وراوياه الدوري والسوسي.

5- ابن عامر " عبد الله بن عامر اليحصبي"8- 118هـ" تابعي جليل أخذ القرآن عن المغيرة بن أبي شهاب عن عثمان رضي الله عنه، وهو إمام أهل الشام وقاضيهم، وراوياه هشام وابن ذكوان.

6- حمزة بن حبيب الزيات الكوفي "80-158هـ" قرأ علي الأعمش على يحيى بن وثاب على زر بن حبيش على عثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم، وراوياه خلف وخلاد.

7- الكسائي "علي بن حمزة النحوي الكوفي" "119-189هـ" كان من أعلم الناس بالنحو، أخذ القراءة عن حمزة الزيات وابن أبي ليلى وعيسى الهمداني، وراوياه أبو الحارث والدوري.

8- أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني " 00-130هــ" إمام أهل المدينة، قرأ القرآن على ابن عباس وأبي هريرة، وهما قرآ على أبي بن كعب رضي الله عنهم، وراوياه ابن وردان وابن جماز.

9- يعقوب بن إسحاق الحضرمي "117-215هــ" إمام أهل البصرة، كان من أعلم الناس بالقرآن والقراءات، وراوياه رويس وروح.

10- خَلَف بن هشام البزار"150-229هــ"، مقرئ ومحدث كبير، وهو أحد راويي حمزة الزيات، وقراءته في اختياره لم تخرج عن قراءة الكوفيين، وراوياه إسحاق وإدريس.

صفة جمع مصحف عثمان

الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه جمع الناس في عهده على مصحف واحد فهل أمر برسم كلمات القرآن على ما تيسر من الأحرف السبعة أم اختار حرفاً واحداً وترك الباقي؟

الظاهر من الأدلة الصحيحة وتنوع القراءات الثابتة أنه أمر برسم كلمات القرآن على ما أمكن من الأحرف السبعة المترلة، فإن لم يمكن رسم الكلمة إلا برسم واحد اختار أحد الحروف المترلة، وإن كان أحدها بلغة قريش قدمه على غيره، فعثمان اعتمد على قول النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ) وهو حديث صحيح[1] يدل على أن أي حرف يقتصر عليه المسلمون في قراءة القرآن أو في رسم المصحف فهو كاف شاف.

- فمثال ما أمكن رسمه على أكثر من حرف:

رسم قوله تعالى: ﴿ملك يوم الدين﴾ هكذا بغير ألف، وتقرأ بالحرفين: ﴿ملك﴾ أو ﴿مالك﴾، وهما قراءتان متواترتان.

ورسم قوله تعالى: ﴿إن جاءكم فاسق بنبإ فىىىىوا﴾هكذا بلا نقط، فتصح أن تقرأ بالحرفين: ﴿فتبينوا﴾ أو﴿فتثبتوا﴾، وهما قراءتان متواترتان.

ورسم قوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عىد الرحمن إناثا ﴾ هكذا، فتصح أن تقرأ ﴿عباد﴾ أو ﴿عند﴾، وهما قراءتان متواترتان.

- ومثال ما لم يمكن رسمه إلا برسم واحد فاختار عثمان أحد الحروف المترلة:

رسم قوله تعالى: ﴿القيوم﴾ هكذا، وقد كانت في حرفٍ ﴿القيام﴾، وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقرأ به في خلافته[2]، فاختار عثمان أحد الحرفين وهو الأول، ولو اختار الثاني لجاز ذلك، ولكنه ألزم المسلمين أن يقرءوا بالرسم الذي اختاره لهم من الأحرف السبعة حتى يسد باب الخلاف بينهم.

---

[1] انظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (2581).

[2] تفسير ابن جرير الطبري (175/5) والمصاحف لابن أبي داود ص 162وتفسير ابن المنذر (112/1).

ورسم قوله تعالى: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ هكذا، وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقرؤها ﴿فامضوا إلى ذكر الله﴾[3]، وهي قراءة سمعها عمر من النبي صلى الله عليه وسلم، وروى ابن جرير بسند صحيح عن عبد الله بن عمر قال: لقد توفى الله عمر رضي الله عنه، وما يقرأ هذه الآية التي ذكر الله فيها الجمعة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ إلا «فامضوا إلى ذكر الله»[4]، فهما قراءتان مسموعتان من النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته لكن لم يمكن عثمان أن يرسم إلا إحدى القراءتين إما ﴿فاسعوا﴾، أو ﴿فامضوا﴾، فاختار الأولى.

ورسم قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى* والنهار إذا تجلى* وما خلق الذكر والأنثى﴾ هكذا، وقد ثبت في الصحيحين[5] أن عبد الله بن مسعود وأبا الدرداء رضي الله عنهما كانا يقرآنها: ﴿والذكر والأنثى﴾، وهي قراءة سمعاها من النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لم يمكن عثمان إلا أن يختار إحدى القراءتين، لأنه لا يمكن رسم الحرفين في نفس الوقت، فاختار القراءة الأولى.

- ومثال ما كان أحد الأحرف بلغة قريش فقدمه على غيره: قوله تعالى: ﴿التابوت﴾، فإن لغة أهل المدينة التابوه بالهاء، ولغة قريش التابوت بالتاء، وفي الحديث الصحيح أن هذا أول حرف اختلف فيه الذين كان يكتبون المصحف بأمر عثمان على رسم واحد، فرفعوا هذا الخلاف إليه، فقال: اكتبوه على لغة قريش: ﴿التابوت﴾[6].

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره: (1/ 45): " اختلاف الأحرف السبعة، إنما هو اختلاف ألفاظ، كقولك: هلم وتعال، باتفاق المعاني، لا باختلاف معان موجبة اختلاف أحكام. وبمثل الذي قلنا في ذلك، صحت الأخبار عن جماعة من السلف والخلف ".

---

[3] تفسير ابن جرير (638/22).

[4] تفسير ابن جرير (639/22) وسنده على شرط مسلم.

[5] صحيح البخاري (3742) ومسلم (824).

[6] تفسير ابن جرير (54/1) والمصاحف لابن أبي داود ص88، والمقنع في رسم مصاحف المصار لأبي عمرو الداني ص14، وأصل القصة في صحيح البخاري (4987).

وقال ابن جرير أيضا في تفسيره: (1/ 53): " الأمة أمرت بحفظ القرآن وخيرت في قراءته وحفظه، بأي تلك الأحرف السبعة شاءت، كما أمرت إذا هي حنثت في يمين وهي موسرة أن تكفر بأي الكفارات الثلاث شاءت: إما بعتق، أو إطعام، أو كسوة، فلو أجمع جميعها على التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث، دون حظرها التكفير بأي الثلاث شاء المكفر، كانت مصيبة حكم الله، مؤدية في ذلك الواجب عليها من حق الله، فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته، وخيرت في قراءته بأي الأحرف السبعة شاءت، فرأت لعلة من العلل، أوجبت عليها الثبات على حرف واحد، قراءته بحرف واحد، ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية، ولم تحظر قراءته بجميع حروفه على قارئه، بما أذن له في قراءته به. فإن إمام المسلمين، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان رحمة الله عليه، جمع المسلمين، نظرا منه لهم، وإشفاقا منه عليهم، ورأفة منه بهم، حذار الردة من بعضهم بعد الإسلام، والدخول في الكفر بعد الإيمان، إذ ظهر من بعضهم بمحضره وفي عصره التكذيب ببعض الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، مع سماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عن التكذيب بشيء منها، وإخباره إياهم، أن المراء فيها كفر، فحملهم رحمة الله عليه إذ رأى ذلك ظاهرا بينهم في عصره، بما أمن عليهم معه عظيم البلاء في الدين، من تلاوة القرآن على حرف واحد، وجمعهم على مصحف واحد، وحرف واحد، وحرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه، وعزم على كل من كان عنده مصحف مخالف المصحف الذي جمعهم عليه أن يحرقه، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة، التي عزم عليها إمامها العادل في تركها، طاعة منها له، ونظرا منها لأنفسها، ولمن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لدثورها، وعفو آثارها، وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها، من غير جحود منها صحتها وصحة شيء منها، ولكن نظرا منها لأنفسها ولسائر أهل دينها، فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد، الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية. فإن قال بعض من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك، لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة؛ لأن القراءة بها لو كانت فرضا عليهم، لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة، عند من يقوم بنقله الحجة، ويقطع خبره العذر، ويزيل الشك من قراءة الأمة، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل

على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين، بعد أن يكون في نقلة القرآن من الأمة، من تجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة، فإذا كان ذلك كذلك، لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع تاركين ما كان عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا، إذ كان الذي فعلوا من ذلك، كان هو النظر للإسلام وأهله، فكان القيام بفعل الواجب عليهم بهم أولى من فعل ما لو فعلوه، كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب، منهم إلى السلامة من ذلك" انتهى باختصار.

الفرق بين جمع أبي بكر الصديق وجمع عثمان رضي الله عنهما:

جمع أبي بكر الصديق يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفية، فالباعث لدى أبي بكر رضي الله عنه لجمع القرآن خشية ذهابه بذهاب حملته، حين استحر القتل بالقراء في حروب الردة.

والباعث لدى عثمان رضي الله عنه كثرة الاختلاف في وجوه القراءة، حيث كان بعض التابعين الذين لم يشاهدوا التنزيل يخطِّيء بعضهم بعضا، وربما اقتتل بعضهم مع بعض!!

وجمع أبي بكر الصديق للقرآن هو الأصل، وقد كان جمعا لما كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب في مصحف واحد مرتب الآيات والسور، مقتصرا على ما لم تنسخ تلاوته.

وجمع عثمان للقرآن كان نسخا للمصحف الذي جمعه أبو بكر مع توحيد رسم المصحف، فعثمان لم يسقط آية واحدة و لم يغير حرفا واحدا مما كان في المصحف الذي جمعه أبو بكر، ويدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه (4530) عن عبد الله بن الزبير قال: قلت: لعثمان بن عفان ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟! قال: «يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه».

والدليل على أن جمع عثمان مجرد نسخ ما رواه البخاري في صحيحه (4987) عن أن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشأم في فتح أرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: «أن أرسلي إلينا بالصحف **ننسخها** في المصاحف، ثم نردها إليك»، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام **فنسخوها** في

المصاحف "، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم» ففعلوا حتى إذا **نسخوا** الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

وبهذا البيان المختصر يُعلم أن صفة جمع مصحف عثمان رضي الله عنه هو رسم كلمات القرآن على ما أمكن من الأحرف السبعة المنزلة، فإن لم يمكن رسم الكلمة إلا برسم واحد اختار أحد الحروف المنزلة، وإن كان أحدها بلغة قريش قدمه على غيره، ثم نسخ عدة مصاحف بالرسم الذي اعتمده؛ ولذا يسمى الرسم العثماني، وأمر من كان عنده مصحف أن يحرقه، وأرسل عدة مصاحف من تلك النسخة إلى الأمصار، وبهذا العمل العظيم اجتمعت الأمة على رسم عثمان، وسلم المسلمون من التفرق والاختلاف في كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

معرفة القرآن المكي والمدني

ما نزل من السور والآيات القرآنية قبل الهجرة فهو مكي وما نزل بعد الهجرة فهو مدني.

وطريقة معرفة المكي والمدني من السور والآيات هي النقلُ عن الصحابة الذين نزل القرآن الكريم بين ظهرانيهم، وقد استنبط العلماءُ عدداً من الضوابط التي يُعرف بها المكي والمدني، ومنها:

1 - في الغالب كل سورة فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أنزلت بالمدينة، وما كان فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أنزلت بمكة.

2 - في الغالب كل شيء نزل من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون؛ فإنما نزل بمكة، وما كان من الفرائض والسنن؛ فإنما نزل بالمدينة».

3 - كل سورة ورد في أولها أحرف تهجٍ فهي مكية، إلا سورة البقرة وآل عمران والرعد فهي مكية.

4 - كل سورة ورد فيها لفظ (كلا)، فهي مكية، ولم يرد هذا اللفظ إلا في النصف الثاني من سور القرآن.

5 - كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية؛ لأن النفاق لم يظهر إلا في المدينة إلا سورة العنكبوت فهي مكية ومع ذلك ذكر فيها المنافقين.

6 - كل سورة فيها سجدة فهي مكية.

7 - كل سورة نزل فيها جدال لأهل الكتاب وذكر لأحوالهم ومخازيهم فهي مدنية.

أسباب النُّزول

سبب النُّزول يعين على معرفة المراد وتعيينه، إذ قد ترد عليه احتمالات صحيحة من حيث هي، لكن سبب النُّزول يحدد أحد هذه المعاني، ويكون هو المراد دون غيره.

قال العلامة ابن دقيق العيد: بيان سبب النُّزول طريق قوي في فهم معاني القرآن، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: معرفة سبب النُّزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

وأكثر السور والآيات نزلت ابتداء من غير سبب خاص، وبعضها لها سبب نزول مثل سورة المسد نزلت في أبي لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم، روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: 214] صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فِهر، يا بني عدي» - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ [المسد: 2].

ومثل آية ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: 189] سبب نزولها ما رواه البخاري ومسلم عن البراء رضي الله عنه قال: «نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَلِ أبوابِ بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قِبَلِ بابه، فكأنه عُيِّرَ بذلك فنزلت الآية.

وهنا قاعدة مهمة وهي: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فمثلا روى مسلم في صحيحه أن أواخر سورة العلق ﴿ أرأيت الذي ينهى... ﴾ إلى قوله: ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ نزلت في نهي أبي جهل للنبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة، وهي عامة في كل ناهٍ عن الخير أن يترجر، وفي كل منهي عن الخير أن يستمر، ولا يطيع من ينهاه عن عبادة الله، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

مثال آخر: روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنّ رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النّبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، قال: فنزلت: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ﴾[هود: 114]، قال: فقال الرّجل: ألي هذه يا رسول الله؟ قال: «لمن عمل بها من أمّتي». وفي رواية لمسلم: فقال رجل من القوم: يا نبيّ الله، هذا له خاصّة؟ قال: «بل للنّاس كافّة».

وينبغي التنبه إلى وجوب التحقق من صحة السبب، فقد وردت روايات كثيرة في أسباب النزول لكنها لا تصح سندا، وقد جمع ما صح منها الشيخ مقبل الوادعي رحمه الله في كتابه القيم الصحيح المسند من أسباب النزول، لكنه لم يذكر كثيرا من الروايات المشهورة التي في أسانيدها ضعف، مع أن كثرة طرقها وتعدد مخارجها يدل على أن لها أصلا.

أسماء السُّور

تسمية السور كانت مع بدايات النُّزول، والمقصود من التسمية تمييز السورة عن غيرها، وبعض السور ثبت اسمها عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، وبعضها عن الصحابة أو من بعدهم، وبعض السور لها أكثر من اسمٍ، وهي إما أن تكون مما ثبت تسميته عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أو عن الصحابة، ثم يشتهر عند المتأخرين اسم آخر، مثل: سورة بني إسرائيل وهي الإسراء، وسورة القتال وهي سورة محمد، وسورة بني النضير وهي سورة الحشر، وسورة التوبة وهي سورة براءة وتسمى أيضا سورة العذاب والفاضحة، وغير ذلك.

ترتيب السور

لم يقع خلاف بين الأمة في أن ترتيب الآيات كان بتوقيف من النبي صلّى الله عليه وسلّم، إذ كان يقرؤه على الصحابة ليل نهار، ولم يُسمع من أحدهم أنه خالفَ في ترتيب آية من الآيات، أما مسألة ترتيب السور فقد وقع فيها خلاف؛ هل كان بتوقيف من النبي صلّى الله عليه وسلّم أم باجتهاد من الصحابة؟ والراجح ــ والله أعلم ــ القول الأول؛ لأنه قد ثبت في أحاديث عديدة ذكر سور القرآن المتوالية حسب ترتيب المصحف، ولأن تقسيم سور القرآن إلى طوال ومئين ومثاني والمفصل ثابت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فقد روى أحمد في مسنده (16982) وصححه الألباني عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أعطيت مكان التوراة السبع ومكان الزبور المئين ومكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل».

فأما السبع، فهي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة؛ لأنهم كانوا يعدون الأنفال والتوبة سورة واحدة، وقيل: السابعة التوبة وحدها، وقيل: السابعة هي سورة يونس.

وأما المِئون، فهي السور التي تلي المثاني، وهي التي يزيد عدد آياتها عن المائة أو تقاربها.

وأما المثاني، فهي التي تلي المئين، قال الفراء: "المثاني هي السور التي آيُها أقل من مائة آية؛ لأنها تثنى؛ أي تكرر أكثر مما تثنى الطوال والمئون.

وأما المفصل، فهو لفظ يطلق على السور بَدْءًا من "سورة ق" إلى آخر المصحف.

وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، والمفصل ثلاثة أقسام: طوال، وأوساط، وقصار. المشهور أن طواله من سورة ق إلى سورة (عم)، وأوساطه من (عم) إلى سورة الضحى، وقصاره من الضحى إلى الناس، والله أعلم.

عدد سور القرآن وآياته وحروفه وأجزائه:

عدد سور القرآن مائة وأربعة عشرة سورة (114).

وعدد آياته ستةُ آلافٍ ومائتان وستٌّ وثلاثون آية (6236).

وعدد كلماته سبعة وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة (77439).

وعدد حروفه: ثلاثمائة وعشرون ألفاً (320000). وقيل غير ذلك لاختلاف العادين، فبعضهم يعد الحرف المشدد حرفين، وبعضهم يعد حرف المد وبعضهم لا يعده؛ فاختلف العد، وليس في هذا كبير فائدة.

وعدد أجزاء القرآن ثلاثون جزءا، وهذه الأجزاء لم يجزئها النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه، وقيل: إنها عملت في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي تسهيلا لمن أراد حفظ القرآن، وعلامات لمن يقرأ القرآن، والأمر سهل لكن هذه الأجزاء تتضمن أحيانا الوقوف على بعض الكلام المتصل بما بعده، كقوله تعالى:﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾[النساء:24]، وقوله: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الأحزاب:31]، وأمثال ذلك.

معرفة الناسخ والمنسوخ

النسخ في اللغة: الرفع والإزالة، وفي الاصطلاح: رفع حكم دليل شرعي أو لفظه بدليل من الكتاب أو السنة.

والنسخ ثابت في الكتاب والسنَّة وفي إجماع أهل السنَّة، وفيه حِكَم عظيمة، وغالباً ما يكون الناسخ تخفيفاً على المسلمين، أو تكثيراً للأجور.

قال الله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 106 - 107]، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: النسخ: هو النقل، فحقيقة النسخ: نقل المكلفين من حكم مشروع، إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه، وكان اليهود ينكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر، وهوى محض. فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ من آية (أَوْ نُنْسِهَا) أي: نُنسها العباد، فنزيلها من قلوبهم: (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا) وأنفع لكم، (أَوْ مِثْلِهَا). فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول ؛ لأن فضله تعالى يزداد، خصوصاً على هذه الأمة، التي سهل عليها دينها غاية التسهيل. وأخبر أن من قدح في النسخ: فقد قدح في ملكه، وقدرته، فقال: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ). فإذا كان مالكاً لكم، متصرفاً فيكم، تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيه: فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير: كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام، فالعبد مدبَّر، مسخَّر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض ؟ وهو أيضاً ولي عباده، ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم: أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته، ورحمته بهم. ومَن تأمل ما وقع في القرآن والسنَّة من النسخ: عرف بذلك حكمة الله، ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم، من حيث لا يشعرون بلطفه.

والنسخ في القرآن ثلاثة أنواع:

نسخ التلاوة والحكم معاً، ونسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم.

الأول: نسخ الحكم والتلاوة جميعاً، مثاله ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: " كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرِّمن، ثم نسخن بخمس معلومات، وتوفي رسول الله وهنَّ فيما يقرأ من القرآن ".

الثاني: نسخ الحكم دون التلاوة، مثاله: آية تقديم الصدقة أمام مناجاة الرسول وهي قوله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ وهي منسوخة بقوله سبحانه بعدها: ﴿ ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فحكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية، مع أن تلاوة كلتيهما باقية.

الثالث: نسخ التلاوة دون الحكم، ويدل على وقوعه ما صح عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب رضي الله عنهما قالا: (كان فيما أنزل من القرآن " الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة ")، وهذه الآية لم يعد لها وجود بين دفتي المصحف، مع أن حكمها باقٍ على إحكامه لم ينسخ.

وينبغي التنبه إلى أن كثيرا من الآيات يدعي فيها بعض العلماء النسخ وليست بمنسوخة، كآيات الأمر بالعفو والإعراض عن المشركين، قال بعضهم: إنها منسوخة بآيات القتال، والراجح أنها ليست منسوخة، بل هي محكمة يعمل بها وقت الضعف، وآيات القتال يعمل بها وقت القوة.

الآيات المنسوخة في القرآن الكريم

للشيخ الدكتور عبدالله بن محمد الأمين الشنقيطي كتاب مفيد في الآيات المنسوخة في القرآن الكريم ذكر فيه أن الذي ثبت نسخه من الآيات تسع آيات فقط، وهي:

1- الآية 12 من سورة المجادلة:﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر﴾ نسخت هذه الآية بالآية التي بعدها:﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات...﴾.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

2- الآية 65 من سورة الأنفال:﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾، وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى:﴿الآن خفف الله عنكم..﴾. وقد فهم الصحابة هذه الآية على أنها ناسخة للتي قبلها، وصرحوا بالنسخ، وكذلك كبار المفسرين من السلف رحمهم الله صرحوا بكون هذه الآية منسوخة بالآية التي بعدها.

3- الآيات من سورة المزمل: ﴿يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً* نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه...﴾ نسختها الآية التي في آخر السورة: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه...﴾.

4- الآيتان (15-16) من سورة النساء:﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا * واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيما﴾. والذي نسخ حكم هاتين الآيتين هو قوله تعالى في سورة النور:﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة..﴾. وبالآية التي نسخ لفظها وبقي حكمها:(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)، وفي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم).

5- الآية (240) من سورة البقرة، قوله تعالى:﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ نسختها الآية المتقدمة عليها في نظم القرآن وهي قوله تعالى:﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً..﴾[البقرة: 234].

6- الآية رقم (184) من سورة البقرة:﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ نسختها آية:﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾.

7- الآية (67) من سورة النحل:﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً﴾.

8- الآية رقم (219) من سورة البقرة:﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾.

9- الآية رقم (43) من سورة النساء:﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾.

وهذه الآيات الثلاث الأخيرة دخلها النسخ بقوله تعالى في سورة المائدة:﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾.

معرفة المحكم والمتشابه

القرآن كله محكم، إن أردنا بإحكامه إتقانه وجمال نظمه بحيث لا يتطرق إليه الضعف في ألفاظه ومعانيه، وبهذ المعنى أنزل الله قوله الكريم: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾، والقرآن كله متشابه، إن أردنا بتشابهه تماثل آياته في البلاغة والإعجاز، وصعوبة المفاضلة بين أجزائه، وبهذا المعنى أنزل الله قوله الحكيم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾، وفي القرآن آيات محكمات وأخر متشابهات، فالمحكمات هن الآيات الواضحات التي تدل على معناها بنفسها بوضوح لا خفاء فيه, والمتشابهات هن الآيات التي يتضح معناها بردها إلى الآيات المحكمات، قال الله سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:7-9].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (2/6-8): " يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم، إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى:﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾

[الزخرف: 59] وبقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله".

وقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم ».

ومن أمثلة المحكم ما في القرآن من آيات كثيرة تثبت أن الله في السماء مستو على عرشه كما يليق بجلاله، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ* أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الْمُلْكِ: 6-7]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الْأَعْرَافِ: 54]، وقال الله تعالى:﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الْأَنْعَامِ: 18]، وقال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:50].

فهذه آيات محكمات واضحات تثبت صفة العلو لله سبحانه، وجاءت بعض الآيات المتشابهات التي تحتمل معنى حق ومعنى باطل مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الْحَدِيدِ: 4].

فهذه الآية استدل بها بعض أهل البدع على أن الله ليس في السماء وأنه في كل مكان، وتركوا الآيات الواضحات البينات واتبعوا المتشابهات التي تحتمل معنى باطلا تمسكوا به، وتحتمل معنى حقا فهمه أهل العلم منها عندما ردوها إلى المحكم فعرفوا مراد الله منها، فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ يحتمل معنى باطلا هو الذي أراده أهل البدع وهو أن الله في كل مكان بذاته حتى في أماكن القاذورات والنجاسات وفي بطون الحيوانات وفي جهنم!! تعالى الله ما يقولون، وتحتمل معنى حقا وهو أن الله معنا بعلمه في كل مكان، فلا يخلو مكان من علم الله، وهذا المعنى هو الذي أراده الله؛ ولذا بدأ تلك الآية بذكر استوائه على عرشه ثم ثنى ذلك بذكر علمه بما يدخل في الأرض وما يخرج

منها وما يترل من السماء ويصعد فيها، ثم ذكر أنه معنا أينما كنا أي بعلمه ثم ختم الآية بذكر أنه بكل شيء بصير، وبهذا البيان صارت هذه الآية المتشابهة محكمة بينة المعنى، وهذه طريقة أهل العلم يقولون: (آمنا به كل من عند ربنا﴾.

وآية أخرى متشابهة استدل بها أهل البدع في هذه المسألة وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:7].

فالراسخون في العلم ردوا هذه الآية المتشابهة إلى الآيات المحكمات، قال ابن جرير في تفسيره (468/22): "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك فترى ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ من شيء، لا يخفى عليه صغير ذلك وكبيره؛ يقول جلّ ثناؤه: فكيف يخفى على من كانت هذه صفته أعمال هؤلاء الكافرين وعصيانهم ربهم، ثم وصف جلّ ثناؤه قربه من عباده وسماعه نجواهم، وما يكتمونه الناس من أحاديثهم، فيتحدثونه سرًا بينهم، فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ ﴾ من خلقه، ﴿إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، يسمع سرّهم ونجواهم، لا يخفى عليه شيء من أسرارهم، ﴿وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ يقول: ولا يكون من نجوى خمسة إلا هو سادسهم كذلك، ﴿وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ﴾ يقول: ولا أقل من ثلاثة ﴿وَلا أَكْثَرَ﴾ من خمسة، ﴿إِلا هُوَ مَعَهُمْ﴾ إذا تناجوا، ﴿أَيْنَمَا كَانُوا﴾ يقول: في أيّ موضع ومكان كانوا. وعني بقوله: ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، بمعنى: أنه مشاهدهم بعلمه، وهو على عرشه ".

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في التمهيد (7/ 138): "وعلماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا في تأويل قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ هو على العرش وعلمه في كل مكان, وما خالفهم أحد في ذلك يحتج به".

ومما يدل على أن المراد بالآية العلم كما فسرها السلف أن الآية بدأها الله بالعلم وختمها بالعلم فقال في أولها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ وقال في آخرها: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، والحمد لله الذي بين لنا كل ما نحتاج إليه.

قال ابن عثيمين في كتابه أصول في التفسير ص 45: " الراسخون في العلم أصحاب العقول، يعرفون كيف يخرجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى، فيبقى القرآن كله محكما لا اشتباه فيه. والحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه أنه لو كان القرآن كله محكما لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقا وعملا لظهور معناه، وعدم المجال لتحريفه، والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولو كان كله متشابها لفات كونه بيانا، وهدى للناس، ولما أمكن العمل به، وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات، يرجع إليهن عند التشابه، وآخر متشابهات امتحانا للعباد، ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل أو تناقض لقوله تعالى: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 42] وقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ [النساء: الآية 82] وأما من في قلبه زيغ، فيتخذ من المتشابه سبيلا إلى تحريف المحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد كثيرا من المنحرفين في العقائد والأعمال، يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة" انتهى بتصرف يسير.

أصول التفسير

أصول التفسير هي: المقدمات العلمية التي تعين على فهم التفسير.

حكم تعلم التفسير: تعلم التفسير واجب بقدر الاستطاعة، فقد أنزل الله كتابه ليتدبره الناس، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29]، وذم الله من لم يتدبره فقال سبحانه: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]، والتدبر يكون بعد تفسير ألفاظه وفهم معانيه، ولذا فالمسلم مأمور بهذا الفهم والتفسير.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

أهمية التفسير:

حاجة الأمة ماسَّة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الترديد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِرَ، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، ومن تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44] يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن ــ كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما ــ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلّى الله عليه وسلّم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا.

طرق التفسير:

إن أصح الطرق في التفسير أن يُفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمِل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، وما اختُصر في مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر، فيفسر القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به. فإن أعياك ذلك، فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، فرسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى كلامه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا كما في مجموع الفتاوى (27/13): " ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة فإنه قد عرف تفسيره وما أريد بذلك من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم " انتهى.

وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم؛ كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين؛ ومثل: عبد الله بن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم، فالقرآن الكريم يُفسَّر بأقوال صحابة النبي صلى الله عليه وسلم لأننا مأمورون بالاقتداء بهم، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:100]، وقد أخبر الله أن من آمن بمثل ما آمنوا به فقد اهتدى، قال عز وجل:﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ [البقرة:137]، قال ابن القيم في إعلام الموقعين (117/4): " لا ريب أن أقوال الصحابة في التفسير أصوب من أقوال من بعدهم ".

وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدناه عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين؛ كمجاهد بن جبر وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم.

وأقوال التابعين لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، لكن إذا أجمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

مثال تفسير القرآن بالقرآن: قوله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: 62].

فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 63].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق: 2] فقد فسر الطارق بقوله في الآية التالية: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 3].

وقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:6-7] فقد بين الله من هم الذين أنعم عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:69].

ومثال تفسير القرآن بالسنة الصحيحة: قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:7] فقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الآية كما ثبت في سنن الترمذي وصححه الألباني من حديث عدي بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال».

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [لأنفال: الآية 60] فقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة بالرمي. رواه مسلم في صحيحه من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وأما الأمثلة على تفسير الصحابة والتابعين للقرآن فأكثر من أن تحصر، وسيأتي ذكر أمثلة لها فيما يأتي.

اختلاف السلف في التفسير:

الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، قال سفيان بن عيينة: ليس في تفسير القرآن اختلاف إذا صح القول في ذلك.

فالسلف كثيرًا ما يعبّرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر؛ كمن يقول: أحمد هو الحاشر والماحي والعاقب. والقدوس هو الغفور والرحيم؛ أي أن المسمَّى واحد، لا أن هذه الصفة هي هذه الصفة، ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس.

مثال ذلك: تفسيرهم (للصراط المستقيم): فقال بعضهم: هو القرآن، أي: اتباعه، وقال بعضهم: هو الإسلام، فهذان القولان متفقان، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كل منهما نبَّه على وصف غير الوصف الآخر.

ومن خلاف التنوع بين مفسري السلف: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه، مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى لفظ الخبز، فأُرِيَ رغيفًا وقيل له: هذا. فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده.

مثال ذلك ما نقل في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: 32]. فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيعَ للواجباتِ، والمنتهكَ للمحرماتِ. والمقتصد يتناول فاعل الواجبات، وتارك المحرمات. والسابق يدخل فيه من سبق فتقرَّب بالحسنات مع الواجبات. فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون. ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق: الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه: الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار.

ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين: إما لكونه مُشتَركًا في اللفظ؛ كلفظ «قسورة» الذي يراد به الرامي، ويراد به الأسد. ولفظ «عسعس» الذي يراد به إقبال الليل وإدباره.

ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافًا أن يعبِّروا عن المعاني بألفاظ متقاربةٍ لا مترادفة،

مثل قول بعضهم: ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ أي: تُحبس، وقال الآخر: تُرتهن، ومثل قوله تعالى: ﴿وكأسا دهاقا﴾، قال بعضهم: أي ممتلئة، وقيل: متتابعة، وقيل: صافية، فهذا ليس من اختلاف التضاد، بل هو تقريب للمعنى، وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جدًا، فإن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين.

حكم التفسير بمجرد الرأي:

تفسير القرآن بمجرد الرأي حرام إن كان عن جهل أو هوى، أما تفسيره بالرأي المبني على علم أو غلبة ظن فيجوز، والقرآن حمال أوجه، ومن طرق تفسير القرآن تفسيره بالقرآن أو السنة أو باللغة العربية، فقد يفسر بعض المتأخرين آية بآية أخرى أو بحديث صحيح و لم يسبق إلى ذلك التفسير، ويكون تفسيره صحيحا يضاف إلى معنى الآية؛ لاعتماد المفسر على دليل صحيح، ويشترط عدم مخالفته لقواعد اللغة العربية؛ فإن القرآن أنزل بلسان عربي مبين.

حكم التفسير بالإسرائيليات:

لا يجوز الاعتماد في التفسير على الأحاديث الإسرائيلية، لكن يجوز ذكرها للاستشهاد لا للاعتقاد، وهي على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به، ولا نكذبه، وتجوز حكايته، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

التجديد عند المفسرين:

الرحمن أنزل القرآن وعلَّمه لنتدبره ونتذكر به ونعمل بأحكامه، ونصدق بأخباره، يقول الله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وللتدبر أصول يسير عليها أهل التفسير قديما وحديثا لا يجوز الخروج عنها، ومن خرج عنها فقد أخطأ سواء كان من المتقدمين أو من المتأخرين.

والطريقة السليمة في التفسير هي: أن يفسر القرآن بالقرآن وبالسنة الصحيحة وبأقوال الصحابة والتابعين وباللغة العربية بما يحتمله لفظ التزيل، فمن فسر القرآن بأحد هذه الطرق فقد أحسن وأصاب وإن كان من المتأخرين، وإن جاء بما لم يأت به من سبقه من المفسرين، ما دام أنه سار على ما ساروا عليه من التأمل والتدبر والنظر والاعتبار بإحدى الطرق السليمة في التفسير، و لم يخالف النقل الصحيح ولا العقل الصريح.

والتفسير نوعان: تفسير بالمأثور، وتفسير بالمعقول.

والأول هو الأصل وهو المعول عليه، والثاني يُقبل منه ما كان على منهج السلف مما يوافق قواعد اللغة العربية ولا يخالف القرآن ولا السنة الصحيحة؛ ولهذا فإن تفسير القرآن بالرأي منه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود، فما كان موافقا لمنهج السلف فهو المقبول وإن لم يُرو عنهم، وإن كان مخالفا لمنهجهم فهو مردود وإن كان مرويا عن بعضهم.

ولقد يسر الرحمن القرآن للذكر، فمن أقبل عليه فتح الله عليه، والناظر في كتب المفسرين القدامى والمتأخرين يجد ذلك جليا بما يبين صدق من قال: كم ترك الأول للآخر!!

ولا يخفى على من يقرأ في كتب التفسير أنه يجد المفسر يذكر أقوالا كثيرة لم يسبقه إليها أحد، ومنهم المكثر ومنهم المقل، وكثيرا ما يقولون عن ذلك مما ليس مأثورا عن السلف: ويحتمل كذا، أو وتحتمل الآية كذا، ومن أول من بدأ هذا المنهج شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري رحمه الله، مع أن تفسيره مصنَّف من كتب التفسير بالمأثور إلا أنه ذكر كثيرا من الأقوال من عنده إما لكونه لم يجد فيها شيئا مأثورا عن السلف، أو نقل عنهم بعض الأقوال في التفسير ثم ذكر أن الآية تحتمل أن تفسر بكذا وكذا مما لم يرو عن السلف، وبعضها تكون احتمالا في الإعراب مما لم يتكلم فيه السلف.

وما أحسن ما قال الماوردي رحمه الله في مقدمة تفسيره المسمى النكت والعيون (1/ 21): " ولما كان ظاهر الجلي مفهوما بالتلاوة، وكان الغامض الخفي لا يُعلم إلا من وجهين: نقل واجتهاد؛ جعلت كتابي هذا مقصورا على تأويل ما خفي علمه، وتفسير ما غمض تصوره وفهمه، وجعلته جامعا بين أقاويل السلف والخلف، وموضحا عن المؤتلف والمختلف، وذاكرا ما سنح به الخاطر من معنى يحتمل، عبرت عنه بأنه محتمل، ليتميز ما قيل مما قلته، ويُعلم ما استُخرج مما استخرجته ".

ومن العجب أن يمنع بعض الناس التجديد في التفسير!! ولكن لا غرابة في ذلك فقد زعم قوم إغلاق باب الاجتهاد في الفقه لمن هو أهل للاجتهاد، ومنع قوم من التصحيح والتضعيف في الأحاديث ولو كان المتكلم فيها من أهل الحديث، والغالب أن المانعين للتجديد في التفسير ليسوا من أهل التخصص في التفسير، وإلا فكيف يمنع من التجديد في التفسير من يطالع كتب التفسير وهي مليئة جدا بالتجديد في المعاني وفي الأسلوب، وليست مجرد نقل محض؟!!

بل إن الممارس للتفسير قراءة وتدريسا يجد الكثير من المعاني والفوائد والاستنباطات التي لم يجدها في كتب التفسير، وهذا من بركة القرآن ومن فضل الرحمن الذي علم القرآن ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾.

قال ابن عبد الهادي عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كبيرة تشتمل على نفائس جليلة، ونكت دقيقة، ومعانٍ لطيفة، وأوضح مواضع كثيرة أشكلت على خلق من المفسّرين".

والقرآن المجيد أعظم من أن يحيط بجميع معانيه عالم أو علماء زمن معين، ومن عظمته أنه لا تنقضي عجائبه، نعم السلف الصالح أعلم ممن جاء بعدهم بالتفسير من حيث الجملة، ولا يمنع ذلك أن يأتي أحد بعدهم بمعنى صحيح لم يُنقل عنهم، كما أنهم أفقه ممن بعدهم من حيث الجملة، ولا يمنع ذلك أن يأتي بعض الفقهاء المتأخرين فيحرر بعض المسائل الفقهية أحسن منهم، وكذلك أهل الحديث المتقدمين أعلم من المحدثين المتأخرين ولا يمنع ذلك أن بعض الأحاديث تكلم فيها بعض المتأخرين بما لم يتكلم فيها المتقدمون تصحيحا أو تضعيفا، وكل هذا مع التقيد بأصول كل علم، والأهلية لمن يتكلم في ذلك العلم.

هذا وليُعلم أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم هم أعلم الناس بالتفسير من حيث الجملة، ولكن الذين نُقل عنهم التفسير منهم قلة قليلة جدا كالخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبي موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وأنس بن مالك وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وجابر بن عبد الله وعائشة رضي الله عنهم، وأكثر الصحابة لم يُنقل عنهم التفسير مع كونهم كانوا يتدبرون القرآن ويعلمونه رضي الله عنهم.

ثم هؤلاء المشهورون بالتفسير من الصحابة لم يُرو عنهم جميع علمهم في الآيات، وأكثر من روي عنه منهم ابن عباس، ولم يُنقل عنه تفسير كل آية في القرآن، فما نُقل عنه أقل بكثير مما تكلم به في التفسير، وهو لم يتكلم بكل ما يعلمه، كيف والمفسر قد يفسر الآية ثم يجد لها معنى آخر؛ ولذا يروى عنه وعن غيره أكثر من قول في بعض الآيات!! فالقرآن حمّال أوجه ولا تنقضي عجائبه.

وهكذا المفسرون من التابعين لم يُدوَّن عنهم جميع ما تكلموا به في التفسير، ولم يُدون عن كل تابعي كل ما قاله في التفسير، بل هو لم يقل كل ما يعلمه في كل آية، وهذا أمر ظاهر لا يخفى على من تأمله.

فإذا أتى بعض العلماء المتأخرين بمعنى جديد في التفسير لم يُنقل عن السابقين لا يُقال: من تقدمك في هذا القول؟! وأيضا لا يُدَّعى أنهم جميعا لم يعرفوا هذا التفسير، فمن أين لنا أن جميعهم – وكلهم كان يقرأ القرآن – لم يعرفوا هذا التفسير؟!! فهل تكلموا بكل ما يعلمونه؟! لا، وفي كثير من الروايات نجد أن المفسر لم يتكلم بتفسير الآية إلا بعد أن سئل عنها، وإن لم يسأل عنها لم يكن ليفسر الآية، فكيف يُظن أنهم نقلوا كل ما يعلمونه من التفسير؟!!

وهل دونت جميع أقوالهم في التفسير؟! لا، فهذا ابن عباس مثلا سأله تلميذه مجاهد بن جبر رحمه الله عن القرآن آية آية كما ثبت ذلك عنه ومع هذا لا نجد لابن عباس قولا مرويا في كثير من الآيات، ولا نجد حتى لتلميذه مجاهد قولا في بعض الآيات، وهذا ظاهر لكل من يقرأ في كتب التفسير المسندة كتفسير ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم وعبد الرزاق الصنعاني، وأجمعها الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.

بل نجد أحيانا تفسير المتأخرين لبعض الآيات أفضل من تفسير من نُقل عنهم من السلف تفسيرها، مثل قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ...﴾ الآيات، فالمروي عن السلف في تفسيرها ليس كما بسطه وبينه العلامة الشنقيطي رحمه الله في كتابه أضواء البيان، فقد تكلم في تفسيرها بما لا تجده في المرويات عن السلف رحمهم الله، مع اعتماده على أقوالهم لكنه حرر المعنى وأجاد وأفاد، وقريب منه ابن جُزي رحمه الله في تفسيره لهذه الآيات.

بل أحيانا نجزم أو نكاد نجزم أن ما نُقل عن السلف في تفسير بعض الآيات خطأ، ولا يملك أي منصف إلا أن يرجح تفسير المتأخرين[7]، ولا يستسيغ أبدا أن يفسر الآية بما روي عن السلف، مع التأكيد بأنهم كلهم لم يُنقل عنهم ذلك التفسير المرجوح، وإن لم نجد في كتب التفسير المسندة سوى ذلك القول المرجوح؛ لما قدمنا أن السلف ليس كلهم تكلم بما يعلم من معاني الآيات، وليس كل من تكلم في التفسير نُقل عنه ذلك، فانظروا ماذا قال مفسرو السلف في تفسير قصة داود عليه السلام مع الخصمين في سورة ص، وانظروا كيف فسرها مثلا العلامة ابن عثيمين بما يوافق سياق الآيات وبما ينزه نبي الله داود عليه السلام مما ذكره كثير من مفسري السلف اعتمادا على الإسرائيليات، قال ابن عثيمين: "قوله: (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذا دخلوا على داود ففزع منهم...) ذكر الله هذه القصة مصدراً لها بالاستفهام الدال على التشويق (وهل أتاك نبأ الخصم إذا تسوروا المحراب) أي دخلوا من السور لا من الباب لأن الباب كان مغلقاً والمحراب مكان العبادة وليس هو الذي نعرفه الآن طاق القبلة ولكنه مكان العبادة ولو كان حجرة مدورة أو مربعة، المهم أنهم لما تسوروا عليه الجدار فدخلوا عليه فزع منهم؛ لأن ذلك على خلاف العادة، وما خرج عن العادة فطبيعة البشر تقتضي أن يفزع منه لا سيما في مثل هذه الصورة، فقالوا له: (لا تخف خصمان) يعني نحن خصمان (بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) ثم ذكروا القصة (إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) والنعجة هي الواحدة من الشياه (فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب) أي غلبني في خطابه لقوته وفصاحته وبيانه، فقال له داود: (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) فحكم له داود عليه الصلاة والسلام دون أن يسمع من خصمه، وطريقة الحكم

---

[7] لشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب أسماه : تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب في التفسير إلا ما هو خطأ فيها.

أن لا يحكم الحاكم حتى ينظر ما لدى الخصم، قال الله تعالى: (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعضٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ منهم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) أي أيقن أننا اختبرناه بهذه الخصومة؛ وذلك أنه عليه الصلاة والسلام اشتغل بالعبادة الخاصة عن الحكم بين الناس فأغلق الباب دونهم، والحاكم ينبغي له أن يكون فاتحاً بابه لمن يأتيه من الخصوم حتى يحكم بينهم، وأيضاً حكم للخصم دون أن يسمع حجة خصمه، وأيضاً تعجل بالحكم قبل سؤال الخصم من أجل أن يرجع إلى عبادته، فعلم عليه الصلاة والسلام أن الله اختبره بهذا فخر راكعاً وأناب تائباً إلى الله عز وجل".

وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان: "واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة مما لا يليق بمنصب داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معول عليه، وما جاء منه مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح منه شيء".

هذا وإن من القرآن ما استأثر الله بعلمه، قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، وقد يشاء الله أن يطَّلع على معنى آية المتأخرون دون المتقدمين، ولكن هذا قليل جدا، وكثير منه مما تحتمل الآية المعنيين ما ذكره السلف وما ذكره المتأخرون، فإن القرآن حمال أوجه، والعلم رزقٌ يرزقه الله جل جلاله من يشاء من عباده، ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾، وهو سبحانه يبثه بين عباده كيف يشاء، فيبسطه لمن يشاء، ويصرفه عمن يشاء، وهو سبحانه الكريم الوهاب الفتاح، قد يهب الصغار ما لا يهبه للكبار، وقد يفتح على بعض المتأخرين ما لم يفتحه على المتقدمين، روى عبد الرزاق الصنعاني (20946): عن معمر عن الزهري قال: كان مجلس عمر مغتصا من القراء شبابا كانوا أو كهولا، فربما استشارهم فيقول: «لا يمنع أحدا منكم حداثة سنه أن يشير برأيه، فإن العلم ليس على حداثة السن ولا قدمه، ولكن الله يضعه حيث شاء».

وقال ابن مالك (ت672هـ) في مقدّمة كتابه "تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد": " وإذا كانت العلومُ مِنَحاً إلهية، ومواهبَ اختصاصية فغيرُ مستبعَدٍ أن يُدَّخَر لبعض المتأخِّرين ما عسُرَ على كثيرٍ من المتقدِّمين، أعاذنا الله من حسدٍ يسدُّ بابَ الإنصاف ويصدُّ عن جميل الأوصاف".

ولا يعني هذا أن يخالف المتأخر الإجماع، أو يتكلم في العلم بالهوى والظنون والأوهام، فإن هذا ضلال مبين، وجهل عظيم، قال الله تعالى: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل

المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾، وإنما المراد أن المتأخر قد يفتح الله عليه بأشياء من العلم فاتت كثير من المتقدمين، فيستنبط من الكتاب والسنة الصحيحة ما لم يستنبطه من قبله، أو يظهر له دليل فات الاستدلال به من قبله، أو يظهر له ضعف قول راج على كثير ممن قبله، ونحو ذلك مما لا يخالف النصوص ولا الإجماع الصحيح.

هذا ومن ادعى أن السلف لم يخف عليهم شيء من معاني القرآن، وأنهم علموا كل آية في كتاب الله وبلَّغوها من بعدهم وحُفظت عنهم في كتب التفسير المسندة، فليأتنا بتفسير هذه الآية مشكورا:﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، لن يجد أحسن من تفسيرها بقوله: الله أعلم بمراده منها!! فكيف يدعي أحد أن السلف رضوان الله عليهم فسروا جميع آي القرآن و لم يتركوا شاذة ولا فاذة إلا بينوها!!

أمثلة لتفسير جديد لبعض الآيات فتح الله بها على بعض المتأخرين:

هذه بعض الأمثلة فيها تفسير جديد لبعض المتأخرين، لا يخفى على منصف أنها معان ظاهرة موافقة لمنهج السلف في التفسير وإن لم يذكروها:

1- قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾، قال المفسرون المتقدمون: أي وخلق لكم، ففسروا الإنزال هنا بالخلق، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (12/ 254): "ولا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة؛ فإن الأنعام تنزل من بطون أمهاتها ومن أصلاب آبائها تأتي بطون أمهاتها "، وقال ابن القيم كما في مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص 442: " وأما قوله: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾، فإن الأنعام تُخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يُقال: أنزل و لم يُنزل، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض، ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولها إناثها بالوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علو إلى أسفل".

2- قوله سبحانه عن عيسى عليه السلام: ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾.

ما هو الكتاب؟ قال المفسرون: أي يعلمه الكتابة، ولعل الظاهر أنه القرآن الكريم؛ لأن عيسى عليه السلام سيأتي آخر الزمان فيحكم بالقرآن والسنة، فيكون الله أخبر أنه

سيعلمه القرآن والسنة، وفي القرآن يأتي ذكر الكتاب والحكمة كثيرا بمعنى الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾.

3- قوله تعالى: ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ قال المفسرون: الأرائك جمع أريكة وهي السرير الذي عليه قبة من الثياب، والمتأمل في القرآن يجد أن الله يذكر الأرائك إشارة إلى كون أهل الجنة على الأرائك مع الحور العين أو مع زوجاهم، ويذكر الله الأسرة إشارة إلى كونهم عليها مع إخوانهم وأصحابهم كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾، وقوله: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾، وهذا يبين لنا أن معنى ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي ينظرون إلى الحور العين وزوجاهم وهن معهم على الأرائك، ويؤيده ذكر جمال الوجوه بعدها ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.

4- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ أي عذاب جهنم في الآخرة، وعذاب الحريق في البرزخ، فإن الأصل في العطف التغاير، فيكون هذا دليلا على إثبات عذاب القبر.

5- قوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾ أي ومن يتق الله بترك الكبائر يكفر الله عنه الصغائر كما قال سبحانه: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما﴾، فهذا المعنى ظاهر وموافق للآية الأخرى، ومع هذا لم أجد من صرح به، ومن من فسرها بغير هذا لم يبين ما هي السيئات التي تكفَّر، فيبقى في الآية إشكال لا يزول إلا بما فسرها به، والله أعلم بكتابه.

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

القرآن الكريم معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الخالدة، ولا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، ولا نهاية لوجوه إعجازه، فهو معجز في بلاغته وفصاحته، وفي تشريعه، وفي أخباره، فأخباره صادقة، وأحكامه عادلة، ولا يمكن لأحد أن يأتي بمثله، ومن وجوه إعجاز القرآن ما يسمى بالإعجاز العلمي.

والناس في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم على ثلاثة أصناف: طرفين ووسط: قوم بالغوا في إثبات الإعجاز العلمي في القرآن وتكلفوا في حمل كثير من الآيات على بعض الحقائق العلمية مع عدم احتمال اللفظ القرآني لما ذهبوا إليه، بل وفسروا بعض الآيات القرآنية وفق بعض النظريات التي لم تثبت بالأدلة القطعية، وهؤلاء أفرطوا وتكلفوا. وقوم نفوا الإعجاز العلمي في القرآن جملة وتفصيلا، وهؤلاء فرَّطوا وقصروا.

وقوم توسطوا، فأثبتوا منه ما احتمله لفظ القرآن بلا تكلف، بشرط أن يكون الإعجاز في حقيقة علمية لا نظرية قابلة للقبول والرد، فإن ثبت الإعجاز فسروا الآية بما فسرها السلف أولاً بالإضافة إلى المعنى الجديد، فإن القرآن الكريم حمَّال أوجه، فما احتمله لفظ القرآن موافقا لقواعد اللغة وغير مخالف لما ثبت في الكتاب والسنة؛ فإنه مقبول سواء كان هذا القول قديما أو جديدا؛ فإن القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه، فهذا هو الموقف الصحيح من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بلا إفراط ولا تفريط.

استخراج الفوائد والاستنباطات من القرآن الكريم

ما أكثر الفوائد والاستنباطات من القرآن العظيم!! ولا أحد يخالف في مشروعيتها، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك أوفر نصيب، قال عنه تلميذه الذهبي رحمه الله في معجم شيوخه: "وبرع في التفسير والقرآن، وغاص في دقيق معانيه، بطبع سيّال، وخاطر إلى مواقع الإشكال ميّال، واستنبط منه أشياء لم يُسبق إليها ".

فالاستنباط يجوز من القرآن الحكيم بشرطين هما:

الشرط الأول: أن يحتمل المعنى المستنبط ظاهر لفظ القرآن، بما يوافق قواعد اللغة العربية في الإفراد والتركيب.

الشرط الثاني: أن لا يخالف المعنى المستنبط صريح القرآن أو السنة الصحيحة، فإن القرآن حق يصدق بعضه بعضا، والسنة حق توافق القرآن ولا تخالفه، فمن أتى باستنباط أو معنى جديد يخالف ما قرره القرآن أو السنة الصحيحة فإنه خطأ يقينا لا يُقبل بحال، وأما إن أتى باستنباط أو معنى جديد يحتمله لفظ القرآن ولا يخالف ما قرره القرآن أو السنة الصحيحة فإنه يُقبل؛ لأن من خصائص القرآن الكريم أنه حمَّال أوجه، وهذا من عظمة القرآن المجيد، فالآية الواحدة قد تُفسر بأكثر من قول إن كانت تلك الأقوال معانيها صحيحة ويحتملها اللفظ القرآني بما يوافق قواعد اللغة العربية.

وهذان مثالان فتح الله بهما على بعض المتأخرين استنباطا من القرآن العظيم:

1- فائدة في التفسير لم يذكرها المفسرون تتعلق ببراءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾، لماذا ذكر الله التسبيح في هذه القصة؟!

التسبيح هو التتريه لله، فقذف عائشة رضي الله عنها فيه تنقيص لله حيث اختار لرسوله امرأة فاجرة والعياذ بالله، وفيه طعن للرسول صلى الله عليه وسلم حيث أمسكها زوجة و لم يفارقها حتى مات!!

2- دليل من القرآن على أن الإنسان مسير ومخير لم يذكره المؤلفون في العقائد:

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

يذكر علماء أهل السنة أن الإنسان مسير ومخير في نفس الوقت ويستدلون بقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ حيث أثبت الله للإنسان مشيئة لكنها تحت مشيئة الله، وقد وجدت دليلا آخر على هذا وهو قوله سبحانه:﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ حيث ذكر الله أنه هو الذي ألهم النفس فجورها وتقواها، فهو الذي قدر ذلك قبل أن يخلقها، ومع هذا نسب الله الفجور والتقوى للعبد، فالإنسان هو الذي فجر أو اتقى، فالدليل على أنه مسير قوله:﴿فألهمها﴾، والدليل على أنه مخير قوله: ﴿فجورها وتقواها﴾ففعل العبد يُنسب إلى الله خلقا وتقديرا، ويُنسب للعبد فعلا واختيارا.

وقد ضل من جعل العبد مسيرا فقط كالشعرة في مهب الريح، وهم الجبرية، وضلت القدرية الذين جعلوا العبد مخيرا فقط ونفوا تقدير الله لأفعال العباد، وهو الذي خلق كل شيء بقدر، وعلم كل ما سيكون، ولا يكون في ملكه إلا ما يشاء سبحانه وتعالى.

أفضل كتب التفسير

أفضل تفسير على الإطلاق هو تفسير شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري رحمه الله، وقد اختصره ابن كثير في تفسيره المشهور وزاد فيه نقولات كثيرة وفوائد نفيسة وتحقيقات بديعة، ومن أحسن التفاسير المعتنية بأحكام القرآن تفسير القرطبي، ومن التفاسير العظيمة المحرر الوجيز لابن عطية، ومن الكتب العظيمة التي لا يستغني عنها المتخصص في التفسير: تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، جمعه من كتب ابن تيمية إياد القيسي، وأعظم تفسير للقرآن بالقرآن تفسير الشنقيطي المسمى أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ومن التفاسير المتميزة تفسير الطاهر بن عاشور المسمى التحرير والتنوير، وكذلك تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية للشوكاني، وهذه كلها تفاسير مطولة، لا تناسب أن يجردها المبتدئ كاملة إلا أنه يستفيد منها حين يرجع إليها في تفسير آيات معينة عند البحث وإرادة التوسع.

كتب التفسير المختصرة للمبتدئين:

من أحسن التفاسير المختصرة والمناسبة للمبتدئين:

1- مختصر تفسير ابن كثير، وهو مفيد جدا، وقد اختصره أكثر من مؤلف، مثل أحمد شاكر والمباركفوري وغيرهما كثير.
2- تفسير زبدة التفسير للأشقر وهو مختصر فتح القدير للشوكاني.
3- تفسير السعدي المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.
4- تفسير الجلالين مع التنبه مما فيه من أخطاء في تأويل آيات الصفات على غير طريقة السلف، وكذلك ما فيه من إسرائيليات.
5- التفسير الميسر إعداد نخبة من العلماء.
6- المختصر في التفسير إعداد مركز تفسير للدراسات القرآنية.

وهذه كلها تفاسير ينبغي للمبتدئ أن يجردها كاملة، وعلى الطالب أن يبدأ بما تيسر له منها، والله الموفق.